

الخازن و منهجه في تفسير القرآن الكريم

(لباب التأويل في معاني التنزيل)

الدكتور محمد موسوني - جامعة تلمسان

الملخص:

الخازن و تفسيره (لباب التأويل في معاني التنزيل) كتاب خصه صاحبه بالبحث في منهج الدراسات القرآنية و اللغوية و الأدبية و الوقوف على مكوناته و في تتبعنا لهذا التفسير وضعنا خطة رأينا أنها تؤصل لمنهجه الدراسي و هذا من خلال تعريف وحيثيته، وتناول بالبحث لبعض الموضوعات من تفسيره، وعلاج لنماذج لغوية، و بين هذا وذاك يجد المتصفح لتفسير الخازن إفادة في لباب التأويل ومعاني التنزيل و فسحة في الأسلوب.

من هو الخازن؟

هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن محمد، بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي - نسبة إلى بلدة "شيجة" من أعمال حلب - البغدادي، الشافعي، الصوفي، المعروف بالخازن. اشتهر بذلك لأنه كان خازن خانقاه¹ السميساطية بدمشق. ولد ببغداد سنة 678هـ (ثمان وسبعين وستمئة من الهجرة) وقد خلف رحمه الله كتباً جمّة في فنون مختلفة، فمن ذلك: "لباب التأويل في معاني التنزيل" وهو موضوع بحثنا، و"شرح عمدة الأحكام"، و"مقبول المنقول" في عشر مجلدات، جمع فيه بين مسند الشافعي وأحمد والكتب الستة، والموطأ وسنن الدارقطني، ورتبه على الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطولة. وكان رحمه الله صوفياً حسن السميت بشوش الوجه، كثير التودد للناس، توفي في شعبان سنة 741هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب.²

التعريف بتفسيره: (لباب التأويل في معاني التنزيل)

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوي، وضم إلى ذلك ما نقله وخصه من تفاسير من تقدم عليه، وليس له فيه - كما يقول - في مقدمة تفسيره سوى النقل والانتخاب مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب، وهو أكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما، و معني بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلي الذي لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم.

وقد قدم الخازن لتفسيره بخمسة فصول - الفصل الأول: في فصل القرآن وتلاوته وتعليمه. الفصل الثاني: في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتي القرآن فحسه ولم يتعهده. الفصل الثالث، في جمع القرآن وترتيب نزوله. و الفصل الرابع، في كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل في ذلك. و الفصل الخامس، في معنى التفسير والتأويل.

والمتصفح لتفسير الخازن يلحظ أنه توسع في ذكر الإسرائيليات، وكثيرا ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التي تعنى بهذه الناحية، كتفسير الثعالبي وغيره وهو في الغالب لا يعقب على ما يذكر من القصص الإسرائيلي، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان في بعض المواضع لا يترك القصة تمر دون أن يبين لنا ضعفها أو كذبها، مع أن بعضها غاية في الغرابة.

موضوعات تفسير الخازن

عالج الخازن العديد من المسائل والقضايا الإسلامية، إذ نجده في ذلك بين الاقتضاب حيناً والإسهاب أحياناً أخرى، وذلك حسب ما تقتضيه يد الضرورة ويمليه واجب تقريب المعنى وتبيان جوهر الفكرة و ما يطبع دراسته ظاهرة الإستطراد الذي يؤدي إلى الملل و زيادة في تعقيد الفهم. ونحن نسير مع تفسير الخازن في روية وإمعان نجده يثير موضوع الإيمان إذ يقول في سياق تفسيره لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة: 03) (وأصل الإيمان في اللغة التصديق قال تعالى وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق فإذا فسر الإيمان بهذا فإنه لا يريد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كماله مرة ونقصانه مرة أخرى والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان وإذا فسر بهذا فإنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل الحديث وغيرهم³ وقد اتفق السلف⁴ على

أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان. وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالكروك والسجود بل يزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان.

والإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه، الأول أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشرح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلاً: الإطلاق الثاني: أن يراد به التصديق مع العمل جميعاً، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم يخف زيادته ونقصانه. الإطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشرح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة، فإن اليقينيّات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها. وعلى هذا فقط ظهر في جميع الاطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصه حق وإلا فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت⁵.

ولزيادة الإيمان الذي أمر الله به والذي يكون من عباده المؤمنين وجوهاً ثمانية¹⁷: (أحدها): الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك مالا يلزم غيره، ولو آمن من الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهراً ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل إيمان من عرف الشرائع فأمن بما وعمل بما بل إيمان هذا أكمل وجوباً أو وقوعاً لأن ما وجب عليه من الإيمان أكمل وما وقع منه أكمل.

(الوجه الثاني): الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن أقر بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل، أكمل إيماناً ممن هو على غير هذه الحال بل هو في غفلته من أمره مع أنه مقر بنبوّة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ظاهراً وباطناً.

(الوجه الثالث): أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشرك والريب فمعرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الله تعالى وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفتها غيرها.

(الوجه الرابع): أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله فالعلم بالحبوب يستلزم طلبه والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه. فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم.

(الوجه الخامس): أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الإيمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا عظيما.

(الوجه السادس): أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضا من الإيمان والناس يتفاضلون فيها.

و ما يلاحظ على تفسير الخازن أيضا التداخل في دراسته مواضع أخرى كالتوحيد و المعاملات. فهو تفسير جامع و شامل لعلوم غلابة و دينية

ففي حديثه عن الصلاة يقول : (والصلاة في اللغة الدعاء والرحمة ومنه (وَصَلَّ عَلَيْهِمُ) (التوبة: 103) أدع لهم وأصله من صليت العود إذا لينته فكأن المصلى يلين ويخشع وفي الشرع أعمال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء مع النية)⁶.

و قد أورد أقوال العلماء في تحديدها و يحاول ترجيح بعضها على بعض فيقول مثلاً: الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر لأنها بين صلاتي جمع، فالظهر والعصر يجتمعان وهما صلاتا نهار والمغرب والعشاء يجتمعان وهما صلاتا ليل وصلاة الفجر لا تقتصر ولا تجمع إلى غيرها ولأنها تأتي في وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم في الصيف وفتور الأعضاء وكثرة النعاس وغفلة الناس عنها فخضت بالمحافظة عليها لكونها معرضة للضياع ولأن الله قال عقبها. وقوموا لله قانتين والقنوت هو طول القيام وصلاة الفجر مخصوصة بطول القيام ولأن الله خصها بالذكر في قوله وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا يعني تشهد ملائكة النهار في مكتوبة في ديوان حفظة الليل وحفظة النهار فدل ذلك على مزيد فضلها. المذهب الثاني: أنها صلاة لما روي عن زيد بن ثابت وعائشة قالا: "الصلاة الوسطى صلاة الظهر" (أخرجه مالك في الموطأ)⁷ وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين

ولأن صلاة الظهر تأتي وسط النهار وفي شدة الحر ولأنها تأتي بين البردين يعني صلاة الفجر وصلاة العصر. المذهب الثالث: أنها صلاة العصر قال "الترمذي" هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم. هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم. عن أبي يونس مولى عائشة قال أمرتني عائشة أكتب لها مصحفا وقالت إذا بلغت هذه الآية فأذني 'حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى' فلما بلغت أذنتها فأملت علي حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين قالت عائشة سمعتها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -⁸.

لغة الخازن في تفسيره

تقى لغة الخازن لغة متفاوتة بين اللغة الأدبية و اللغة العلمية المباشرة ولقد أولى الخازن المفردة بالغ الأهمية كونها البنية الأولى والأساسية في صياغة الكلام وكشف الملبس وتوضيح المتشابه من الأمور وتحليل المسائل التي جاء بها القرآن الكريم في ثناياه، إذ نجده في عرضه يبرز الكلمات المفاتيح في القضايا المطروحة فيحيلها في غالب الأحيان لأصلها اللغوي، حتى يمهّد الطريق إلى الإمام بالموضوع، وتدلّيل العقبات أمام الفهم والإدراك لحقيقته. ومن شواهد الأمثلة على ذلك نذكر ما يلي:

يذكر الخازن كلمة 'الحصر' في مسألة إتمام الحج والعمرة عند قوله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (البقرة: 196)، فيعرف الكلمة عند أهل اللغة واختلافهم بين الحصر والإحصار قبل الخوض في بسط المسألة من الجانب الفقهي التشريعي، فيقول: ((أصل الحصر في اللغة الحبس والتضييق، ثم اختلف أهل اللغة بين الحصر والإحصار فقليل: إذا رُد الرجل عن وجهه يريد أن يحصر، وإذا حبس فقد حصر، وقال ابن السكيت: أحصره المرض إذا منعه من السفر أو حاجة يريد بها، وحصره العدو إذا ضيق عليه. وقال الزجاج: الرواية عن أهل اللغة يقال للذي يمنعه الخوف أو المرض أحصر، وللمحبوس حصر. وقال ابن قتيبة في قوله "فإن أحصرتم": هو أن يعرض لرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عدو يقال: أحصر فهو محصر، فغن حبس في دار أو سجن قيل حصر فهو محصور، وذهب قوم على أنهما بمعنى واحد، وقال أحمد بن يحيى: أصل الحصر والإحصار الحبس، وحصر في الحبس أقوى من أحصر، وقيل الإحصار يقال في

المنع الظاهر كالعدو والمنع الباطن كالمريض، والحصر لا يقال إلا في المرض الباطن، وأما قوله "فإن أحصرتم" فمحمول على الأمرين⁹. ومن ثمة فإن الإحصار في كلام العرب منع الذات من فعل ما، يقال: أحصره منعه مانع، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: 273) أي منعهم الفقر من السفر للجهاد. وقال ابن ميادة:

وما هجر ليلي أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغل¹⁰

- وكلمة "العام" في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا اللَّهُ مِائَةٌ عَامٌ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (البقرة: 259) يقول مفسرنا: ((أصل العام من العوم وهو السباحة سميت السنة عاما لأن الشمس تعوم في جميع بروجها))¹¹، والعام الحول وجمعه الأعوام وهو حول يأتي بعد شتوة وصيف لأن فيه سبحا طويلا. ربما يمكن من التصرف فيه والعوم السباحة والسفينة تعوم في جريها، والإبل تعوم في سيرها، والاعتيام اصطفاء خيار مال الرجل لأنه يجري في أخذه شيئا بعد شيء كالسباح في الماء الجاري، واعتام الموت النفوس أولا فأولا كذلك، وأصل الباب السبح¹².

ونحسب أن الخازن حين يعلي من شأن المفردة في تفسيره فيعدها بالشرح لأنها غاية مطلوبة، وأن النص القرآني يميل بطبيعته إلى الإيجاز الذي كان ظاهرة ترتبط بحياة اللغة وبحياة المجتمع العربي في جزيرته، والعربي صاحب اللغة التي نزل بها القرآن قادر على أن يدرك ما وراء هذا الإيجاز، وما يمكن أن يكون القرآن قد تركه من الألفاظ أو الجمل استغناء بنسج الأسلوب عنه لأن فيه دلالة عليه - أما وقد تناولت العصور الإسلامية وضعف الإحساس بطاقات اللغة وأسرارها في البيان، وطرائقها في عرض المعنى أو الفكرة، فإنه لا بد من أن يكشف عن هذا الإيجاز حتى لا يضطرب أمر الناس في فهم معاني القرآن ومعرفة مقاصده، والإبانة عن أدق دقائقه¹³.

و ما يطبع تفسير الخازن التفسير الأدبي فالدارس لتفسير الخازن يلحظ أن أسلوبه الأدبي قد سرى على فنون متعددة نعرض منها بعض النماذج لتكون معالم تؤكد مذهبه الأدبي في الشرح؛ كمثله قوله: ((واعلم أن أمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التي يجدها الإنسان في قلبها وماهية هذه الخواطر حروف وأصوات منتظمة خفية تشبه الكلام في الخارج، ثم إن فاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وهو المحدث لها في باطن الإنسان، وإنما الشيطان كالعرض، والله هو المقدر له على ذلك))¹⁴.

وتتوهج الصورة الأدبية عند مفسرنا فتبدو واضحة للناظرين حين يقف على بيان تعريف الريح عند قول أحكم الحاكمين: (وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ) (البقرة، 164) ((يعني في مهاجها قبول ودبور: شمالا وجنوبا ونكباء وهي الرياح التي تأتي من غير مهب صحيح، فكل ريح تختلف مهاجها تسمى نكباء، وقيل تصريفها في أحوال مهاجها لينة وعاصفة وحارة وباردة، وسميت ريحا لأنها تريح، قال ابن عباس: "أعظم جنود الله الريح" وقيل: ما هبت ريح إلا لشفاء سقيم أو ضده، وقيل البشارة في ثلاث رياح الصبا والشمال والجنوب والدبور هي الريح العقيم التي أهلكت بها عاد فلا بشارة فيها، والآية في الريح أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهي مع ذلك في غاية القوة، تقلع الشجر والصخر وتخرب البنيان العظيم وهي مع ذلك حياة الوجود فلو أمسكت طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض))¹⁵.

وغالبا ما يتخذ الخازن من طريقة السؤال والجواب سبيله في تبليغ الفكرة فيحاول من خلال أسلوبه تقريب المعاني المجردة في صورة أدنى إلى التصور البشري حتى يمكن فهم المراد من الألفاظ الدالة عليها، ومن آيات ذلك نجحتي المشهد التالي يقول: ((فإن قلت: ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة، قلت: وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة، وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جنانه، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلا حيرة وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلا حيرة، وفي ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم: إحداها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور غيره فإذا ذهب ذلك النور بقي هو في ظلمته، فكأنهم لما أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار. الثانية: أن النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم. الثالثة: أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياء فشبه حالهم بذلك))¹⁶.

ويعمد الخازن إلى الأمثال في توضيح معاني القرآن ففي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي) أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (البقرة، 26) ((وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقيل: هو أحقر من ذرة صغار النمل، وأجمع من نملة وأطيش من ذبابة، وألح من ذبابة. ولأن ضرب المثل من

الأمر المستحسن في العقل وعند العرب¹⁷. وتبقى الأمثال باعتبارها مبلغ الذروة في البيان والإيضاح المحجة القصوى على مذهب الخازن المتأدب في التفسير. و بعد فتفسير لباب التأويل في معاني التنزيل تفسير له من الخصوصيات العلمية المتعددة ما يجعله يشترك مع جميع تفاسير القرآن الكريم المتقدمة منها و المتأخرة.

الهوامش

- 1 خاتمه: كلمة فارسية تطلق على المباني التي تقام لإيواء الصوفية التي يخلون فيها للعبادة. وقد انتشرت هذه المباني منذ القرن 11 وفي العهد العثماني سميت هذه المباني "تكايا"، وخصصت لإيواء الدراويش الذين ينقطعون للنسك. (انظر: الجمعية المصرية، (الموسوعة العربية الميسرة)- ج2-دار الجبل، مصر، ط2، 2001، 1037)
- 2 انظر ترجمة للخازن: الذهبي (محمد حسين) - التفسير والمفسرون - ج1 - مكتبة وهبة - القاهرة - ط6 (1416هـ-1995م) ص318 نقلا عن: الدرر الكامنة (97/3-98)، وطبقات المفسرين للدواودي ص178
- 3 الخازن - تفسير الخازن ج1/ص25
- 4 الخازن - تفسير الخازن ج1/ص25
- 5 الغزالي أبو حامد - إحياء علوم الدين - ج1 - دار إحياء الكتب العربية (مصر) - (د.ت) - ص119-121 (بتصرف).
- 6 الخازن - تفسير الخازن - ج1/ص26
- 7 ابن أنس (مالك) - الموطأ - منشورات دار الآفاق الجديدة - المغرب - مراجعة وإشراف مجموعة من العلماء - 1992. ط1. ص129
- 8 المرجع نفسه ص129
- 9 انظر: الخازن - تفسير الخازن - ج1/148-149
- 10 انظر: ابن عاشور (طاهر) - تفسير التحرير والتنوير - ج2 - الدار التونسية للفكر - تونس - ط1 - 1984 - ص222
- 11 الخازن - تفسير الخازن - ج1/234
- 12 انظر: الطبرسي (أبا علي) - مجمع البيان - ج1/317
- 13 انظر: خليل (أحمد) - دراسات في القرآن - دار النهضة العربية - بيروت - ط1 - (1969) - ص141-142
- 14 الخازن، تفسير الخازن، ج1/118
- 15 المصدر السابق، ج1/115-116
- 16 المصدر نفسه، ج1/31
- 17 المصدر السابق، ج1/36